الاخلاق في فلسفة هيوم

أ.م.د. مهند علي نعمة
جامعة القادسية/ كلية التربية للبنات
م. هدى طالب طراد
جامعة بابل /كلية الفنون الجميلة

Ethics in Hume's philosophy

Muhannad Ali Nima
Al-Qadisiyah University/ College of Education for Girls
Mahand.ali@qu.edu.iq
Huda Talib Trad
Babylon University/College of Fine Arts
Fine.huda.talib@uobabylon.edu.iq

Abstract

Hume was influenced by many philosophers, including Jeremiah Besham and Immanuel Kant. Bentham, or the philosophers of the English utilitarian school, said that the straw fell from his eyes when Hume read and admitted (Kant) that Hume was the first to wake him from his social slumber, and many of the principles of (Kant), especially his interpretations of space, time, mentality, and others as answers, whether implicit or explicit, to problems raised by Hume.

Hume demonstrated the impossibility of accepting necessary mental priorities, and called for following the scientific method, which requires the return of every idea to the impression in which it was derived.

Hume's doctrine is a coherent unit of a conscious and in-depth view of human nature in which he attempted to build a new, clear and well-structured science that is the science of human nature.

He began his philosophy by calling for the scientific method on the Newtonian pattern, which is the method that requires taking observation as a guide and experience as a test, and we see him clearly admit that imagination has a creative power. Knowledge achieves solid foundations upon which our knowledge of reality is based, and enables empathy to play its human role.

Keywords: ethics, philosophy, Hume

الملخص

لقد تأثر بهيوم الكثير من الفلاسفة ومنهم جيريمن بشام وعمانوئيل كانت فقد قال بنثام او فلاسفة المدرسة النفعية الانجليزية ان القشاوة قد سقطت من عينيه حين قرأ هيوم واعترف (كانت) بأن (هيوم) كان اول من ايقظه من سباته الاجماطيقي ، ويعد كثير من مبادئ (كانت) الهامة ،وخاصة تفسيراته للمكان والزمان وللعقلية وغيرها بمثابة اجابات سواء كانت ضمنية او صريحة على مشكلات اثارها هيوم .

بين هيوم استحالة التسليم بأوليات عقلية ضرورية ، ودعا اتباع المنهج العلمي الذي يلزم برد كل فكرة الى الانطباع الذي استمدت فيه .

ان مذهب هيوم هو وحدة متسقة عن نظرة واعية متعمقة للطبيعة البشرية حاول فيها ان يبني علما جديدا واضح المعالم سليم البنيان هو علم الطبيعة البشرية .

استهل فلسفته بالدعوة الى المنهج العلمي على النسق النيوتي ، وهو المنهج الذي يلزم بإتخاذ الملاحظة نبراسا والتجربة محكا ونراه يقر بوضوح بأن للخيال قوة مبدعة ونستشف ذلك في ثنايا حديثه هذه القوة المبدعة هي ما يدعوها هيوم تلقائية الذهن ، ولهذه التلقائية الفضل في ربط امور الواقع بروابط وثيقة تحقق المعرفة اصولا راسخة يستند اليها علمنا بالواقع ، وتمكن للتعاطف من ان يؤدي دوره الانساني .

الكلمات المفتاحية : الاخلاق ، فلسفة ، هيوم

المقدمة

يحل دافيد هيوم اليوم واحدا من اكبر الفلاسفة الانجليز ، غير انه لم يستطيع في ايامه ان يفرض نفسه كمفكر ، ذلك انه فشل ان ينال منها منصبا جامعيا ينطلق منه لنشر مبادئه ، كما انه لم ينجح كأديب كما حصل مع اقرانه الفرنسيين ، اعتقد هيوم بأن العلة ليست في افكاره وفلسفته ، بل في طريقة كتابته وصعوبتها ، فأخذ يكتب المقالات الصغيرة ، ولجأ كثير من الاحيان الى السخرية ، اراد ان يكون كاتبا وكاتبا ناجحا ، لم يترك موضوعا الا وطرقه ، كتب في الفن وفي السياسة وفي الاخلاق ، وفي الدين ، وفي التاريخ والادب ، وكان قاسيا وجارحا ، وجعل من التهكم سلاحا خفيا للعقلانية التي يريدها هو ، تلك العقلانية التي ترفض الاندفاع وراء بعض الاوهام الفلسفية ، او الانجرار وراء الاعتقادات الخرافية الدينية ، وروى القصص اللاذعة ليؤكد بأن انتقال البشرية من الوثنية الى الوحيد لم يكن يشكل تقدما بل جعل التعصب يزداد والتسامح ينحسر .

ان النزعة التجريبية الانكليزية التي بدأت على يد بيكون وتطورت عند لوك قد نضجت واكتملت على يد (هيوم)الذي هو عامل حاسم في التمييز بين القديم والحديث.

ان اسهامه الخطير والذي جعل منه مرحلة نقدية فلسفية مهمة وادخله من اوسع الابواب عضوا قطبا مهما وممهدا ورائدا للتصور الفلسفي العلمي ، حيث ادخل بوضوح الاحتمالية والنسبية في المعرفة ، ومن ثم مهد بقوة للعقل الفلسفي العلمي والعلمي المنتج هو في تأكيده عدم وجود اية رابطة منطقية علمية واضحة بذاتها او يمكن اثباتها بالبرهان القاطع تفيد بأن السبب يتبع المسبب ضرورة ، اذ ليس في وسع العقل البرهنة على ان الحالات غير الواقعة في تجربتنا يجب ان تتشابه الحالات التي جربناها .

ان العلة شيء كثير بعده تكرار شيء اخر لدرجة ظهور الشيء الاول يجعلنا مباشرة نفكر في الشيء الثاني ، فجاء البحث منقسما الى اربعة مباحث احتوى المبحث الاول على حياة الفيلسوف ومؤلفاته ، اما المبحث الثاني فقد تناول فلسفته النظرية وهي كل من المعرفة وانواعها والعالم الخارجي والزمان والمكان ، اما المبحث فقد تضمن ارائه في السياسة والدين اما المبحث الرابع فإحتوى على فلسفته في الاخلاق.

المبحث الاول

حياته ومؤلفاته

ينتمي دافيد هيوم الى اسرة برجوازية اسكتلندية ، ولد في ادنبرة في السادس والعشرون من شهر نيسان عام 1711 م ، وتيتم لأبيه ولم يبلغ الثالثة من عمره[1].

فنشأ في عصر احتدم فيه النقاش حول المسائل الاخلاقية وحول المذهب الطبيعي في الدين الذي يرى ان هناك ديانة طبيعية يمكن ان يكتشفها الناس بالتفكير وحده وتصدى لهذا المذهب فلاسفة كثيرون مثل (جورج باركلي)*

(1) الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ط1 ، دار الوفاء الدين للطباعة والنشر ، الاسكندرية ، 2010م، ص9.

وكان من الطبيعي ان يتأثر هيوم وهو القارئ المجد بكتابات هؤلاء الفلاسفة ، لن يثور على التفكير المجرد البحث كوسيلة لاكتشاف حقيقة الاشياء [2].

كان مولعا بالادب منذ نعومة اظفاره فقد عشقه طيلة حياته وكان اعظم ؟؟؟؟ لمتعته ، وقد ساعده الأدب على التفوق في عالم الكتابة والشعر بمباهج الحياة [3].

حاول لفترة ان يدرس القانون غير ان اهتماماته الاصلية كانت تكمن في الفلسفة التي قرر في النهاية ان يتخصص فيها ، انشغل في مشروع تجاري لفترة قصيرة تخلى عنه بسرعة ، وفي عام 1734م ابحر (هيوم)الى فرنسا حيث اقام فيها لمدة ثلاث سنوات ، لما كانت موارده محدودة ، فقد اضطر الى تكييف اسلوب حياته حسبما تمنحه الاقدار من متع ضئيلة وقد قبل هذه القيود برحابة صدر تامة ، حتى يتفرغ كليا لاهدافه الفكرية [4].

حلم (هيوم) بأن يحدث ثورة كاملة في الفلسفة والاخلاق ، بمستوى الثورة التي احدثها نيوتن في الفيزياء ، نحن امام فيلسوف كتب اعظم ما عنده وهو ما يزال في الخامسة والعشرين من عمره ، غير ان حلمه بالمجد والنجاح لم يتحقق ، واعتقد بأن العلة ليست في افكاره وفلسفته ، بل في طريقة كتابته وصعوبتها [5].

(هيوم) الذي لم يتخل يوما عن حلم النجاح ، كان قد اعاد صياغة المجلدين الاولين من رسالته حول الطبيعة البشرية ونشرهما بعد ان سهل المحتوى ، وقربه من الناس ، تحت عنوان جديد هو : فحص حول الفهم البشري ، وكذلك فعل مع المجلد الثالث اذ صاغه من جديد ، ونشره تحت عنوان جديد هو فحص (استقصاء) حول مبادئ الاخلاق ، وكان عندها في الاربعين من عمره وفي هذين الكتابين اهم آرائه الفلسفية والاخلاقية ، وفيهما تتجلى بوضوح عقلانية الملتزمة التزاما كليا بالتجربة اي تجريبية ، كذلك ارتيابية المعتدلة المشككة بالكثير من المسلمات [6].

كتب الى صديق يلوم نفسه " لأن سلامي العقلي لا تدعمه الفلسفة ، دعما يكفي للثبات للطمات القدر . فعظمة النفس وسموها هذا لا سبيل اليه الا في الدرس والتآمر فأسمح لي بأن اتكلم هكذا كفيلسوف ، فذلك موضوع اطيل التفكير فيه " ، وفي فترة لاحقة قال " انه لم يشعر بأي ايمان بالدين منذ بدأ قراءة لوك * " مكث فترة في رانس ،

---

* ولد عام 1685 في ايرلندا ، تلقى دراسته في مدرسة كيليني اصبح في عام 1709 قسيسا في الكنيسة الانجليزية ، اهم مؤلفاته بحث يتعلق بمبادئ المعرفة البشرية وفي الحركة ، والخضوع السلبي ، توفي عام 1753م.

(2) كريم متى : الفلسفة الحديثة عرض نقدي ، ط2 ، دار الكتاب الجديد المتحدة ، بيروت ، بلا ، ص199.

(3) ابراهيم مصطفى ، الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم ، دار الوقاء لدينا الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، 2001م ، ص323.

(4) برتراند رسل ، حكمة العرب ، ج2 ، ترجمة فؤاد زكريا ، سلسلة كتب ثقافية ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والاداب ، الكويت ، 1990م ، ص96.

(5) زيناتي ، جورج : الفلسفة في مسارها ، ط1 ، الاحوال والازمنة للطباعة والنشر والتوزيع ، 2012م ، ص168.

(6) المصدر نفسه ، 169.

* لوك : ولد جون لوك سنة (1632م–1704م) وقضى لوك فترة طفولته في سومرست حتى بلغ الرابعة عشر ثم التحق بجامعة اكسفورد في سنة 1652م حصل بعدها على درجة البكالوريوس 1656م ثم الماجستير في الفلسفة

ثم رحل الى لافليش بفرنسا ، ولأن كلية اليسوعيين كانت تملك مكتبة كبيرة ، اتصل الاسكتلندي المدبر اتصالا بالكهنة فسمحوا له بإستعمال كتبهم [7].

التقى (هيوم) في باريس الكاتب والاجتماعي الفرنسي الشهير(جان جاك روسو)** وانعقدت بينهما صلات وثيقة دفعت بالاخير ان يدخل مع صديقه الى انجلترا وقد تأثر الصديقان كل منهما بالآخر ، الا ان الكاتب الفرنسي لم يلبث ان قلب لصاحبه ظهر انكب عليه صنيعه ، فرغب في الهدوء الذي كثيرا ما تاقت اليه نفسه من قبل وبالرغم من رحلته وانتقاله واضطراب حياته من حين لآخر لم ينصرف عن البحث والتأليف [8].

انكب على كتابه انتاجه الاول (رسالة في الطبيعة البشرية) وبعودته الى لندن عام 1737م، اخذ يبحث عن ناشر ، ولكن الكتاب لم يصادف من الرواج والنجاح ما توقعه له صاحبه ، ظهر الجزءان الأولان منه 1739م ، ومع ظهورهما قد اثار انتباه النقاد الانجليز ، بل واهتمام الاوروبيين ايضا . الا ان(هيوم) لم يكن راضيا عن مصير كتابه [9].

وقد حقق شهرة واسعة في اثناء حياته بمقالاته عن الاخلاق والموضوعات السياسية والاقتصادية وبمؤلفاته التاريخية ، وكان المنصب المهم الوحيد الذي شغله هو منصب سكرتير السفارة البريطانية في باريس (1763م–1769م) حيث اصبح قائما بالاعمال فيها لفترة قصيرة ، وصار شخصية مرموقة في المجتمع الفرنسي وكان له اصدقاء من رجال الكنيسة المعتدلين الا انه كان بلا ريب شكاكا وخصما لكلمة الاديان المقدرة [10].

عرف كونه فيلسوفا بعد ان اكمل مؤلفه الفلسفي الاول وكان حينذاك في السادسة والعشرين من عمره [11].

وفي عام 1744م رشح هيوم نفسه لكرسي الاخلاق والفلسفة لكنه استبعد لسخط رجال الدين والفكر عليه ، وكان لفشله هذا وقع مدير في نفسه ظل ملازما له طوال حياته [12].

وكانت شهرته قد ذاعت في القارة الاوروبية حيث اهدى اليه (مونتسكيو)* نسخة من كتابه (روح القوانين) وكان للملاحظات التي ابداها (هيوم)على هذا الكتاب تقدير عظيم لدى صاحبه ، وفي عام 1752م م تولى امانة مكتبة

1658م من اهم مؤلفاته (مقالة في الفهم البشري) (رسالة في التسامح الديني) (مقالتان في الحكم المدنية) ، للمزيد ينظر : فاروق عبد المعطي . جون لوك

(7) ول ديورانت : قصة الحضارةج1 ، مجلد التاسع ،ترجمة فؤاد اندراوس ، دار الجيل ، بيروت ، 1988 ، ص201–203.

** فيلسوف فرنسي ولد في جنيف 1712م وتوفي في 1778م يعد من اهم كتاب عصر التنوير.

(8) ابراهيم بيومي مدكور ، يوسف كرم : دروس في تاريخ الفلسفة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1953م ، ص199.

(9) الشنطي ، محمد فتحي: فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص10 .

(10) فؤاد كامل واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، دار القلم ، بيروت ، بلا ، ص525.

(11) اسماعيل الشرفا : الموسوعة الفلسفية ، دار اسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2002م ، ص221.

(12) الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص10 .

*

كلية الحقوق بأدنيره ، وقد هيأ له منصبه هذا ان يحقق حلما طالما راوده ، الا وهو كتابة تاريخ انجلترا ، وكانت المصادر في متناول يده في المكتبة فشجعه ذلك على تحقيق حلمه وعكف على هذا العمل الشاق [13].

وفي عام 1746 التحق بخدمة الجنرال سانت كلير ، وذهب معه في العام التالي في بعثة دبلوماسية الى النمسا وايطاليا وقد اتاحت له هذه المهام ان يدخر مبلغا من المال يسمح له بالتقاعد [14].

وفي عام 1763م ذهب مرة اخرى الى فرنسا حيث عين سكرتيرا للسفارة البريطانية وفي عام 1760 م شغل منصب القائم بالاعمال بضع شهور وادى واجبه في هذه الفترة على خير وجه وقد كان نجما متألقا في مجتمعات باريس بقلمه وكياسته [15].

كان هيوم محبوبا وله طبع لطيف ، اجتماعي ، لا يضمر الريبة ويتجلى بالفضيلة واكتسب بفضل هذه الخصال الحميدة نوعا من الشعبية العجيبة في اواخر حياته وذلك عندما اطلقت صديقته الانسة نانسي اورد اسم (شارع القديس ديفيد) على الشارع الذي شيد فيه هيوم منزله ، والذي لم يكن قد سمي بعد فعرف الشارع بهذا الاسم منذ ذلك الحين [16].

وفي عام 1775م انتابه المرض وصارحه الاطباء بداء السرطان ، فأدرك ان نجمه آذن بالاقوال وواجه نهايته في شجاعة وحزم ، وفي 25 اغسطس عام 1776م توفي (هيوم) بعد حياة حافلة بالدراسة والتحصيل والتأليف ، وقد نشر بعد موته كتاب (محاورات في الدين الطبيعي) الذي يعد من النفائس الفلسفية ومن اروع ما كتب فيلسوفنا [17].

مؤلفاته :

1- رسالة في الطبيعة الانسانية 1738م.
2- بحث يتعلق بالفهم الانساني 1748م.
3- بحث يتعلق بالمبادئ الاخلاقية 1751م.
4- مقالات اخلاقية وسياسية 1748م.
5- تاريخ بريطانيا العظمى ، جزءان 1756م.
6- حياتي 1776م.
7- تاريخ انجلترا منذ غزو يوليوس قيصر الى اتباع هنري السابع 1761م[18].
8- مقالات سياسية 1752م.
9- محاورات في الدين الطبيعي 1749م.
10- التاريخ الطبيعي لدين 1757م.

---

(13) المصدر نفسه ، ص10-11.
(14) برتراند رسل : حكمة الغرب ، ص98.
(15) الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص11.
(16) فؤاد كامل واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص225-226.
(17) الشنيطي ، محمد فتحي: فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ،ص12.
(18) ابراهيم مصطفى : الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم ، دار الوفا لدينا الطباعة والنشر ،الاسكندرية ، 2001، ص323.

11- خطابات ديفيد هيوم ، نشرت بعد وفاته [19].
12- تاريخ انجلترا تحت اسرة ثيودور عام 1759م[20].
13- اعد للنشر محاورات في الدين الطبيعي لم ينشر الا في عام 1779م.
14- تقدم لشغل كرسي الفلسفة في جامعة ادنبرة فرفض طلبه عام 1744م.
15- اصدر موجز الرسالة في الطبيعة البشرية عام 1740م[21].

المبحث الثاني

فلسفته

1 – المعرفة وانواعها :

اقتفى (هيوم)اثر كبير من(لوك وباركلي) في رد المعرفة البشرية الى اختبارية فكما ان علم الانسان هو الاساس المتين الوحيد للعلوم الاخرى كذلك فأن الاساس المتين الوحيد لهذا العلم ذاته ينبغي ان يقوم في التجربة والملاحظة.

ان (هيوم) ابى ان يقحم اي عنصر تجريبي في فلسفته ، مهما ادى ذلك الى هدم معتقدات الناس الاعتيادية واثارة شكوكهم في قيمة المعرفة [22].

يقول(هيوم) في كتابه (بحث في الفهم الانساني) في نقده للميتافيزيقيا ومضاده " اذا قمنا بزيارة للمكتبات واخذنا كتابا في اللاهوت او الميتافيزيقيا المدرسية ، دعونا نتساءل هل يحتوي اي تفكير يتعلق بالكم او العدد ؟ كلا . هل يحتوي اي تفكير تجريبي او يتعلق بالواقع والوجود ؟ كلا . فنلق به اذن في النار ، لأنه لا يمكن ان ينطوي الا على السفسطة والوهم " [23].

فكل الافكار مستقاة في النهاية من التجربة بطريق الانطباعات ، وهذه اما احاسيس خارجية كالضوء والصوت والحرارة والضغط والروائح والذوق ، واما داخلية كالخدر والجوع واللذة والالم ، والادراك الحسي احساس مفسر فالضوضاء احساس ولكن نقرة على الباب ادراك حسي والمولود اعمى او اصم ليس لديه فكرة عن الضوء او الصوت ، لأنه لم يكن لديه احساس بأحدهما [24].

والعقل لا يتألف الا من ادراكات حسية ، وهذه الادراكات من نوعين . انطباعات وافكار والانطباعات هي ما تطلق عليه اجمالا اسم الاحساسات والمشاعر والانفعالات ، والافكار هي ما نسميه بالخواطر العقلية الاولى قوية مفعمة بالحياة ، والثانية ليست غير نسخ باهتة من الاولى [25].

---

(19) يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار القلم ، بيروت ، بلا ، ص172.
(20) الشنيطي ، محمد فتحي : الفلسفة الحديثة بين الشك والاعتقاد ، ص11.
(21) هيوم ، ديفيد : مبحث في الفاهمة البشرية ، ط1 ، ترجمة موسى وهبة ، دار الفارابي ، بيروت ، 2008 ، ص9-10.
(22) كريم متى : الفلسفة الحديثة عرض نقدي : ص1999-2000.
(23) hume , david , an enguiry concering human under standing , in (great books) Britannica , Chicago , 1952 , vol . 35 , p.509.
(24) ول ، ديورانت : قصة الحضارة ، ص204 .
(25) فؤاد كامل واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص526.

والافكار نوعان : بسيطة ومركبة ، الافكار البسيطة نسخ من الانطباعات البسيطة وهي تشبه دائما انطباعات قد تأثرنا بها فعلا ومنها اشتققناها ، والافكار المركبة مزيج من الافكار البسيطة ، ولا يتحتم ان تعكس المرآة اي مزيج فعلي من الانطباعات ، وهكذا نستطيع ان نفكر في التنين وفي اشياء اخرى لم ندركها قط ادراكا حسيا ، ولا يمكن ان تكون لدينا فكرة بسيطة لنستمدها من انطباع مناظر لها ، وافكارنا المركبة جميعا تبنى من افكار ابسط مشتقة من الانطباعات [26].

وهنالك انواعا مختلفة من الانطباعات تتأتى بواسطة الحواس .

النوع الاول هو هذه الانطباعات الخاصة بشكل الاجسام وحركتها وصلابتها .

النوع الثاني الانطباعات الخاصة بالالوان والطعوم والاصوات والحرارة والبرودة .

النوع الثالث الالام واللذائذ التي تنشأ من احتكاك اجسامنا الاشياء كحز لحمنا بسكين وما اشبه وان الصوت واللون وما هنالك من انطباعات النوع الثاني توجد بنفس الطريقة التي توجد بها انطباعات النوع الاول ، واذا كنا نقوم بتفرقة بين هذين النوعين فأن هذه التفرقة لا تنشأ من محض الادراك [27].

ان كيفيات النوع الثاني هي في الاصل من نفس مستوى اللذة التي نستشهدها من اللفظ والالم الذي نحسه من حز السكين ، والتمييز بين هذين النوعين لا يقوم في الادراك او في القعل بل في الخيال واذن فليست الحواس تستطيع ان تميز بين هذه الانواع الثلاثة من الكيفيات وكذلك العقل لا يتأتى منه اعتقاد في تمييز الموضوعات واتصالها [28].

قال (هيوم)" لا يستطيع احد من الناس بعد ان يرى جسما واحدا يتحرك نتيجة لدفعه بجسم اخر ان يستدل من ذلك ان كل جسم اخر سيتحرك اذا ما تعرض لمثل هذا الدفع نفسه " [29].

ان السببية تحتوي على شيئين الانتظام في التتابع والرابطة الضرورية اما الانتظام في التتابع فيمكن ملاحظته وذلك عندما نرى (س) ثم نرى بعد ذلك انها يعقبها (ص) يعطينا ذلك فكرة التتابع ونلاحظ ايضا الانتظام ، فكلما حدث (س) اعقبها (ص) يعطينا ذلك فكرة الانتظام في التتابع [30].

اما الرابطة الضرورية لو راقبنا ما يحدث عندما نضع القدر على النار ، نرى اللهب ونرى الماء في البداية ، ونرى الماء ساكنا ، ثم نراه بعد ذلك يحدث فقاعات ثم يبدأ بالغليان ، وما دامت الحادثة يتلوها حادثة اخرى ، فأننا لا يمكن ان نلاحظ ابدا الرابطة الضرورية المزعومة بينهما ، فأننا نرى اللهب ثم الغليان كذلك تتابع الحركات ، او الاحداث او الاشياء ولن يكون في استطاعتنا ابدا ان نلاحظ اي رابطة ضرورية بينهما [31].

وهكذا صار كل ما عندنا من علوم نسميها بعلوم الطبيعة وكل ما فيها من تعريفات او صياغات قوانين او معادلات ما هي الا نتاج العادة ، والتكرار وان هذه التعريفات والصياغات ليست بمبادئ على الاطلاق ، حتى

---

(26) المصدر نفسه ، ص526.

(27) الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص165.

(28) المصدر نفسه ، ص165-166.

(29) محمد عثمان الخشت : العقل وما بعد الطبيعة تأويل جديد لفلسفتي هيوم وكانت ، ط1 ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، 2005م، ص67 .

(30) ولتر ستيس : الدين والعقل الحديث ، ترجمة امام عبد الفتاح امام ، مكتبة مدبولي ، 1998 ، ص188.

(31) المصدر نفسه ، ص189.

الاطفال بل البهائم تتعلم من التجربة ، ان الطفل الذي تحترق يده حين يقربها من لهيب شمعة تراه بحجم ثانية ان يفعل العمل نفسه لانه يتوقع اثر الحرق مرة اخرى كنتيجة لفعله [32].

وانه لا احد يستطيع ان يقرر ان الطفل قد استوحى مبدأ العلية او انه بلغ علمه به . بل ان ما سميناه مبدأ العلية ان هو الا عادة . وان العادة هي اكبر منار في حياة الانسان . انها ذلك المبدأ الذي يجعل تجاربنا دافعة لنا [33].

المكان والزمان

يعتقد (هيوم) بأن فكرتي المكان والزمان لا ترجعان الى انطباعات مستقلة بذاتها ، لأنه ليس من انطباعاتنا الحسية والتأملية ما يناظرها ، ولكنهما مستمدان من طريقة ظهور الانطباعات في ادراكنا ، ففكرتا المكان والزمان تقومان في ترتيب خاص متميز للعلاقة ما بين انطباعاتنا كما انه اذا ارتبط شيئان أ و ب بعلاقة ما فأن تلك العلاقة لا تكون شيئا ثالثا مستقلا عن هذين الشيئين ، وكما ان خمس نغمات حيث تعزف على قيثارة بطريقة معينة تعطينا لحنا فأن ذلك اللحن لا يكون نغمة سادسة تضاف الى النغمات الخمس كذلك فأن ترتيب الانطباعات على نحو معين لا يعطينا انطباعات مستقلة عن المكان ولا عن الزمان [34].

ونحصل على فكرة المكان من ملاحظة نقط ملونة مرتبة بطريقة خاصة . يقول هيوم " ان المنضدة المائلة امامي وحدها كافية لكي تمدني بفكرة الامتداد (المكان)."

اذن فهذه الفكرة مستمدة من وتمثل انطباعا ظهر لحواسي هذه اللحظة واذا كان المكان هو ترتيب ، فلا يمكن ان يوجد فضاء بدون مادة . وعليه فلا وجود للفراغ ابدا وليس الخلاء الا شئا خياليا [35].

اما فكرة الزمان فأنها مستمدة من ملاحظة تعاقب ادراكاتنا الحسية والتأملية ، وهي كأنه فكرة مجردة تتمثل في المخيلة بفكرة جزئية خاصة لها كم وكيف محدودان . فالشخص الغارق في نوم عميق او المنشغل بفكرة قد استنفذت وعيه لا يحس بالزمان ، وبقدر ما تتعاقب ادراكاته سرعة او بطئا بذلك القدر تبدو الفترة الزمنية ذاتها اقصر او اطول وعليه فحيث لا تعاقب في الادراكات في العقل ، فلا فكرة عن الزمان بالرغم من انه قد يكون تعاقب حقيقي في الحوادث . ولو كان تعاقب الحوادث في الطبيعة اسرع مما يستطيع العقل ملاحظته ، لظهرت الاشياء في ادراكنا وكأنها ثابتة ولا يكون لدينا فكرة عن التعاقب ولا عن الزمان [36].

اذن فالزمان والمكان تكشهما الصعوبات ، اذ انها ليسا انطباعات او مجموعات مترابطة من الانطباعات ، وكلاهما طريقة تظهر لنا فيها الانطباعات وتنعكس في طريقة ظهور الافكار الناتجة [37].

العالم الخارجي

يعتقد الانسان ان الاشياء الخارجية تتمتع بوجود متصل دائم ، وهي عقيدة باطلة ، ووهم نسجه الخيال ويرجع هذا الوهم الخاطئ الى العادة ايضا التي اوهمتنا بوجود علاقات ضرورية بين الاشياء ، يلقي (هيوم) بادئ بدء هذين

---

(32) صالح الشماع : مشكلات الفلسفة من حيث نظرية المعرفة والمنطق ، ط2 ، مطبعة جامعة بغداد ، 1977 م، ص69-70.

(33) المصدر نفسه ، ص69-70.

(34) كرم متى ، الفلسفة الحديثة عرض نقدي ، ص207 .

(35) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(36) المصدر نفسه ، ص208 .

(37) فؤاد زكريا وآخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص527 .

السؤالين لماذا تعزو الاشياء وجودا مستمرا حتى ولو لم تكن موجودة ، ولماذا نفرض ان تلك الاشياء موجودة خارج العقل متميزة عن القوة المدركة ؟يجيب عن السؤال الاول ، ان الحواس لا تقدم الا ادراكا حاضرا فقط ، فأنا مثلا ارى مكتبي ثم اخرج من غرفتي واعود بعد حين فأرى المكتب ثانية ، فمن ادراني ان هذا المكتب الذي اراه هو نفس المكتب الذي رأيته منذ حين ؟ (38).

انها العادة هي التي تحملني على العقيدة ، بأن مكتبي مستمر الوجود ، ولكن لو حللت الامر لايقنت ببطلان ما توحي الي العادة به ، ذلك لانني في حقيقة الامر لا اعلم عن المكتب الا ما دلتني عليه عيناي ، وهاتان لم تبعثا في الا صورا متفرقة عن المكتب وليس لدي حجة عقلية واحدة ابرر بها ان ما بعث صورة الصباح هو نفسه الذي بعث صورة المساء لقد جاءني من العالم الخارجي عدة مكاتب فأسرع خيالي الخادع الى توهم ان كل هذه المكاتب التي جاءت بها حاسة الابصار هي في الواقع شيء واحد له وجود مستمر وهذا الوهم الباطل الذي نسجه الخيال ولفقه (39).

اذن (هيوم) لم يتخلص هو الاخر من مبادئ مجاورة للتجربة شأنه شأن معظم التجربتين مما يجعلنا نرغم ان القول بالتجربة الخالصة امد غير ممكن حتى اذا ما قلنا به نتغاضى عن تفسير نواحي كثيرة من حياتنا المعرفية (40).

المبحث الثالث

آراؤه في السياسة والدين

1 – اراؤه في السياسة

اتجه (هيوم) في اخريات عمله الى السياسة ففي عام 1752م نشر (احاديث سياسية) وقد ادهشه اقبال القراء عليها . وابهج انجلترا في نزعته المحافظة لسياسته ، كان يتعاطف بعض الشيء مع التطلعات الى مساواة شيوعية حيث يقول : " لابد في الحق من الاعتراف بأن الطبيعة سخت على الانسان سخاء يتيح لكل فرد ان يتمتع بجميع ضروريات الحياة ، بل اكثر كمالياتها ، لو ان عطاياها كلها قسمت بالقسط بين الانواع ، وحسنت بالفن والصناعة " (41).

لكنه احس ان الطبيعة البشرية تجعل حلم المدينة الفاضلة التي تسودها المساواة ضربا من المجال حيث يقول : " ان الفطرة السليمة تنشأ ، بأن هذه الافكار عن المساواة التامة مهما بدت قيمة الا انها في صميمها غير ممكنة عمليا والا لالحقت اشد الاذى بالمجتمع الانساني فلو انك سويت تسوية تامة بين الملكيات ، لحطمت درجات الناس ومراتبهم المختلفة من حيث الصنعة والعناية والجد تلك المساواة فورا " (42).

ونالت الديمقراطية من هيوم ، كما نالت الشيوعية ، رفضه المتعاطف فالمبدأ في رأيه مبدأ نبيل في ذاته ولكن تكذبه كل التجارب ، ان الناس هم الاصل في كل ضروب الحكم العادل ، ورفض النظرية التي سيجيبها روسو

---

(38) زكي نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1936م ، ص240–241.

(39) المصدر نفسه ، ص241.

(40) محمد محمد قاسم ، مدخل الى الفلسفة ، ط1 ، دار النهضة العربية ، بيروت ، 2001م ، ص188.

(41) ول ديورانت ، قصة الحضارة ، ص220 .

(42) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

القائلة بأن الحكومة نشأت اصلا من (تعاقد اجتماعي) بين الناس ، او بين الشعب والحاكم لانها نظرية صبيانية [43].

يقول هيوم " كل الحكومات الموجودة الان تقريبا ، او التي خلفت لنا اي سجل في التاريخ ، اسست اصلا اما على الاغتصاب ، او على الغزو ، او عليهما جميعا ، دون ان تزعم بأنها حظيت بموافقة الشعب ، او بخضوعه الاختياري ، واغلب الظن ان اول سيطرة الانسان على الجماهير بدأت في حالة الحرب "

وهكذا اصبحت الملكية اكثر اشكال الحكم انتشارا ، ودراما ، واذن فأكثرها عملية على الارجح حيث يقول " ان الامير الوراثي ، والنبلاء دون اتباعهم ، والشعب الذي يصوت بواسطة ممثليه ، يؤلفون خير ملكية ، وارستقراطية ، وديمقراطية " [44].

الدين عند (هيوم) لا يقوم في العقل ولا في الوحي والنقل بل في طبيعة الانسان او فطرته بمعنى ما ، فأن الدين لا ينشأ مباشرة عن غريزة اصلية او انطباع اولي في الطبيعة البشرية بل ينشأ مما يتشعب عن غريزة اصلية ولو كانت العقائد الدينية ناشئة عن غريزة مباشرة نوجب ان تكون مشتركة عند الناس كلهم ، ذلك لأن الغرائز واحدة في الجنس البشري . ولكن لما كانت المعتقدات الدينية تختلف عند الناس من مكان الى مكان ومن زمان الى زمان ، فلا ترتد الى الغريزة مباشرة ، بل ان المبادئ الدينية الاولية ينبغي ان تكون ثانوية او فرعية تتغير بإختلاف الظروف التي يعيشها الناس [45].

ان المعتقدات الدينية الاولى في الشعوب التي اعتنقت مذهب تعدد الآلهة الذي يسبق الايمان بوجود اله واحد لم تنشأ من تأمل العقل لحوادث الطبيعة ، بل من اهتمام الانسان بما يجري في الحياة من حوادث هي موضع آماله ومخاوفه ، وهذه الآمال والمخاوف ، الامل في مستقبل زار ، والخوف من الشقاء ، والرهبة من الموت ، والتعطش الى الانتقام ، واشتهاء الطعام والضروريات الاخرى ، كل ذلك يؤلف الاصول الاولى الغامضة للعقيدة الدينية ، وحين يجد الانسان نفسه عاجزا عن تحقيق آماله المستقبلة وعن درء مخاوفه لجهله بأسباب الحوادث الطبيعية فأنه يسلم بوجود قوة خفية يعتقد بانها تحقق آماله وتدفع عنه مخاوفه [46].

ينكر هيوم في كتابه (مقالة في المعجزات) وقوع المعجزة ، على الرغم من انه لا ينكر امكانها ، لأن امكان وقوع المعجزة الخارقة نتيجة طبيعية لمذهبه الذي ينكر به ضرورة التتابع السببي بين الاشياء والحوادث ، فما دامت الاشياء لا تتتابع في نظام معين فمن الجائز اذن ان يحدث في الطبيعية اي شيء ، ان يسترعي ذلك انتباها او يثير دهشتنا ، انه ينكر وقوع المعجزة رغم جوازها عقلا ، محتجا بأن التجربة قد دلت ان الكون يسير في نظام معين فالعقل اقرب الى قبول استمرار هذا النظام منه الى قبول كسره واضطرابه [47].

يقول هيوم " ما من شهادة تكفي لاثبات معجزة ، الا اذا كانت الشهادة من نوع يكون فيه كذبها اكثر اعجازا من الواقعة التي تحاول اثباتها فإذا انبأني انسان بأنه رأى ميتا يبعث ، سألت نفسي للتو ايهما اكثر احتمالا ، ان يكون

---

(43) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(44) ول ديوارنت : قصة الحضارة ، ص220 –221.

(45) كريم متى : الفلسفة الحديثة عرض نقدي ، ص230.

(46) زكي نجيب محمود : قصة الفلسفة الحديثة ، ص245.

(47) فضل الله ، هادي: مدخل الى الفلسفة ، ط2 ، دار المواسم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، 2004 م ، ص165.

هذا خادعا ومخدوعا ، او ان الواقعة التي يرونها وقعت فعلا ، فأوازن بين المعجزتين وطبقا لرجحان احداهما ارفض المعجزة الاكبر " [48].

المبحث الرابع

الاخلاق عند هيوم

اولا :نظرية العواطف والسيكولوجيا

1 – الاعتقاد والعواطف : ليس في وسع الشاك ان ينكر تلك الانفعالات المختلفة التي تنتابه او العواطف المتباينة التي تجيش نفسه . بل ان هذا الجانب من حياة الانسان اي الجانب الشعوري هو الظل الذي يفيء اليه حتى يكاد الجانب العقلي ان يصرعه بضرباته المتلاحقة ، او ليس الاعتقاد ضربا من الاحساس او بعبارة اخرى لونا من العاطفة ، فهنا في حقل العواطف نجد منابت الاعتقاد وتنقسم العواطف الى قسمين عواطف مباشرة واخرى غير مباشرة ، يعنى بالاولى تلك التي تنبعث في النفس انبعاثا مباشرا من الخير او الشر . من الالم او اللذة ، وهي من قبيل الرغبة والمقت ، والحزن والشرور والرجاء والخوف وخيبة الامل والثقة [49].

اما العواطف غير المباشرة فتنبعث عن نفس هذه المبادئ ايضا ، ولكنها تتميز بما يقترن بها من كيفيات اخرى ، وهي من قبيل الكبرياء والضعة ، والطموح والفخر والمحبة والكراهية والحسد والشفقة والحقد وحب الخير وما يتعلق بها وهنالك علل مثيرة لهذه العواطف هذه العلل هي ما يدعوها هيوم بالذوات وهي التي تحل فيها الكيفيات المثيرة لهذه العواطف . ينبغي علينا اذن ان نميز بين علة العاطفة وموضوعها بين ما يثير العاطفة وبين ما تتجه اليه عند اثارتها ، وهيوم يذهب الى ان قبول فكرة العلة في الذهن من شأنه ان يولد العاطفة التي تثيرها من كبرياء والعاطفة عند اثارتها تتجه بنا الى فكرة اخرى وهي فكرة النفس [50].

هنالك تمييز في فكرة العلة بين الكيفية التي تعمل على اثارة العاطفة وبين الذات التي تقوم فيها هذه الكيفية . وهنالك نماذج من الكيفيات التي تثير عاطفة الكبرياء وهي :

1 – ثمة كيفيات ترجع الى النفس ، اي انها من خصائص النفس ومميزاتها مثل الفطنة ، والتعلم ، والشجاعة والعدالة .

مميزات بدنية يختص بها الفرد مثل جمال تكوينه وقوة عضلاته ورشاقة عوده وخفة حركاته .

كيفيات قائمة في ذوات بينها وبيننا علاقات وثيقة كأطفالنا وصلاتنا العائلية ومنازلنا وحدائقنا وملابسنا وما شاكل [51].

اما العواطف المباشرة فهي التي تنشأ مباشرة من اللذة او الالم او بعبارة اخرى من الخير والشر ، والعواطف المباشرة هي من قبيل الرغبة والمقت والحزن والسرور والرجاء والخوف وخيبة الامل ، واحق العواطف المباشرة بحنايتنا عاطفتا الرجاء والخوف فالحادثة التي تبعث فينا سرورا او حزنا يخالجنا ، بصددها دائما رجاء او خوف في حالة افتقارنا الى اليقين بها والتاكد من وقعها ، فالخوف من ثم عاطفة موقوتة تجيش بها نفوسنا في الفترة التي

---

(48) ول ديوارنت : قصة الحضارة ، ج1 ، المجلد التاسع ، ص212.

(49) الشينيطي، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ط1 ، دار الوفاء الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، 2010م ، ص170.

(50) الشنيطي ، محمد فتحي ، فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص170–171.

(51) المصدر نفسه ، ص172.

لا نتأكد فيه من وقوع الشر وهي تستميل الى حزن عند يقينا من وقوعه وكذلك عاطفة الرجاء تستميل الى سرور وبهجة حالما نستوثق من وقوع الخير [52].

ان الاخلاق تتميز بصفة الالتزام ، فلا يمكن ان تستمد في نظر هيوم من العقل ، لأن عمل العقل قاصر على ادراك الانطباعات ومفارقتها ، وهذه لا تنطوي على عنصر الزام مطلقا وعليه لابد ان ترتد الاخلاق الى شتى غير العقل يطلق هيوم اسم العاطفة او الحاسة الاخلاقية وهي تجعلنا نقول عن فعل بأنه خير وعن آخر بأنه شر ولهيوم حجج متعددة على ان العاطفة هي مصدر الاحكام الاخلاقية وهي :

1 – يقوم العقل بإكتشاف صدق وكذب قضايا الواقع (القضايا التركيبية) والعلاقات بين الافكار (القضايا التحليلية) وكل ما ليس بقضية واقعية ولا بعلاقة بين الافكار لا يقبل الصدق ولا الكذب ، وعليه فلا يمكن ان يكون موضوعا للفكر ، وان انفعالاتنا وافعالنا قد تقع ضمن قضايا الواقع ولا ضمن العلاقات بين الافكار فهي ليست صادقة ولا كاذبة ولا يمكن ان يكون الفكر مصدرها [53].

2– لما كانت الاخلاق تحثنا على العمل ، فلا يمكن ان ترجع الى العقل لأن العقل وحده عاجز عن ان يدفعنا الى العمل ، وما كان منفعلا لا يمكن ان يكون مصدرا لما هو فعال كالاخلاق .

3– ان العاطفة تحدد الغايات القصوى للانسان ، اما العقل فيبين الوسائل المحكمة والعملية للوصول الى تلك الغايات ، فالعقل لا صلة له بإختيار الغايات لا من قريب ولا بعيد .

4– الاخلاق تعبر عن ما ينبغي ان يكون ولذلك فلا يمكن ان تستمد من العقل لان القضايا التي يتناولها العقل تعبر عن ما هو كائن ولما كان من المحال ان نستنتج (ما ينبغي ان يكون) من ما هو كائن فمن المحال ان ترتد الاخلاق الى العقل بل الى العاطفة [54].

ثانيا العلاقة بين الواقعة والقيمة

ليس من الواضح ، بالنسبة لكثير من فلاسفة الاخلاق ، ما هو الذي يمكن ان نستخدمه كدليل على هذا التمييز او هذه الثنائية ، من المؤكد انه بالامكان ان نبين وعلى نحو مستقل ، كيف ان التصورات او الحدود الاخلاقية او القيمية مختلفة ، على نحو اساسي عن تصورات او الحدود الواقعية او الوصفية ، مما يترتب عليه انه من غير الممكن للاحكام القيمية التي تحتوي على تصورات اخلاقية اصيلة وخالصة ان تستدل استدلالا صحيحا من احكام واقعة وخالصة ولكن لا يتأتى عن هذا انه حتى في حالة ما اذا استطعنا تقديم برهان مستقل او تدليل قائم بذاته [55].

على عدم امكانية استدلال القيمة من الواقعة فقط ، ان يكون هناك لذلك اختلاف مبدئي واساسي بين القيمة من جهة والواقعة من جهة اخرى فأن عدم امكانية استدلال (الينبغية) من (الكائنية) انما ينتج عن حقيقة التميز بين (القيمة) و(الواقعة) والعكس غير صحيح اي ان التمييز بينهما لا ينتج عن حقيقة عدم امكانية الاستدلال بمعنى

---

(52) المصدر نفسه ، ص182–183.

(53) كريم متى ، الفلسفة الحديثة ، عرض نقدي ،ص227–228.

(54) المصدر نفسه ، ص228.

(55) محمد محمد مدين : فلسفة هيوم الاخلاقية ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ، 2009م، ص85–86.

عدم امكانية الاستدلال هي النتيجة التي نصل اليها وليست المبدأ الذي تنطلق منه ، وبعبارة اخرى ان التمييز بين القيمة والواقعة هو المقدمة التي ادت الى النتيجة التي مؤداها عدم امكانية استدلال (الينبغية) من (الكائنية)[56].

يرى هيوم ان سلوك الانسان عمل آلي محض ، وليس هنالك ما يسمى بالارادة الحرة ، فأن عرفت طبيعة انسان امكنك ان تتنبأ بتعرفه في كل مواقفه المقبلة [57].وان الاخلاق لا يمكن ان تقوم على دعامة لابد من دافع العاطفة ، على ان الاحكام الخلقية نفسها خاضعة لعرف والعبادة والبيئة الطبيعية والانسانية فربما جريمتين متساويتين في عناصرهما المادية لا تصادفان حكما واحدا تبدأ للظروف والاحوال والوطنية في بلد حر غيرها في بلد مستعبد ، والبطولة ذات مظاهر مختلفة اقرناها من المجتمع [58].

ان ما يدفع الانسان الى العمل هي المشاعر والعواطف وما دامت اعمالنا نتيجة العاطفة فلا يصح ان يكون العقل حكما اخلاقيا ، انما المرجع الذي يجب ان يحتكم اليه هو غريزة اخلاقية يعتقد (هيوم) بوجودها ، وهذه الغريزة تحكم على اخلاقية العمل بناء على ما يؤدي اليه شعور باللذة والالم . فالفضلة هي ما يثير في الشخص اللذة ، اما ما يمكننا من الحكم على اعمال الناس فهي ملكة خاصة عند الانسان يستطيع بها مشركة غير في شعوره فيحس بنفس احساسه ، ويقف ذات موقفه [59].

اذا كانت الاخلاق تقوم في العاطفة فلا يمكن ان تكون موضوعية وفي هذا يقول هيوم " لا تقوم الاخلاق في اية قضية واقعية يمكن اكتشافها بواسطة الفهم . فليست الرذيلة والفضيلة قضايا واقعية يمكن ان نستنتج وجودها من العقل اذ لا يمكن اذ يكون في الجسم رذيلة ، انما هي عاطفة استهجان تنشأ في شخص تجاه فعل معين فهي لا تقوم في الجسم (الموضوع) بل في (الذات) .

وحين تقول عن شخص بأنه شرير فأنك تعني بأنك تشعر شعور امتعاض نحوه ولذلك فالفعل واحد بعينه قد يثير فينا مشاعر مختلفة [60].

وعليه يمكن ان نقول ان الفعل او الشخص يكون فاضلا حيث يثير منظره من ذواتنا شعور الاستحسان ومن ثم الاعجاب لما يحدثه فينا من لذة او منفعة على نحو معين ، وكذلك يكون رذيلا حين يثير فينا شعور الاستهجان ومن ثم الاستقباح لما يحدثه لنا من الم او ضرر على نحو معين [61].

اما اهم الفضائل المكتسبة او الاجتماعية فهي فضيلة العدالة بإعتبارها اساس الفضائل جميعا ، العدالة قوام الحياة الاجتماعية ولا محيل عن توفرها في كيان القانون والحكومة من اجل استقرار احوال المجتمع وتقدمه ، وهي من ثم مقبولة مستحبة لما تجلبه من منفعة عامة لافراد المجتمع والعقل هو الذي يبصرنا بما لفضيلة العدالة من نتائج

---

(56) محمد محمد مدين ، فلسفة هيوم الاخلاقية ، ص86 .

(57) زكي نجيب محمود ، قصة الفلسفة الحديثة ، لمطبعة لجنة التأليف والترجمة النشر ، القاهرة ، 1936م ، ص246.

(58) ابراهيم بيومي مدكور : دروس في تاريخ الفلسفة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1953م ، ص205.

(59) زكي نجيب محمود: قصة الفلسفة الحديثة ، ص247.

(60) كريم متى : الفلسفة الحديثة عرض نقدي ، ص228.

(61) المصدر نفسه ، والصفحة نفسها .

نافعة في مضمار الحياة ، وهذه النتائج النافعة هي الاساس الوحيد الذي نبني عليه تقديرنا لها ، والتاريخ والتجربة هي جميعا منابع لاحاطتنا بذلك التقدم الطبيعي للمشاعر الانسانية (62).

ان العقل يمكننا من تفهم المنفعة لما هنالك من خير عام متأتي من هذا العفل او ذلك ولكن لم يرضى الفرد بخير الجماعة ؟ فأن ما هو خير للمجتمع ككل ليس حتما ان يكون فيه خير خاص للفرد . هنا نتبين قيمة التعاطف في الاخلاق ، الذي يسمو بالعواطف على المنفعة الذاتية يجعل السبق للمنفعة الجمعية (63).

كذلك يربط (بنثام) خير الفرد بخير الجماعة فيقول " ان البحث عن لذة الاخرين هو خير وسيلة يمكن ان تعين الفرد نفسه على الوصول الى اكبر قسط ممكن من اللذة ،ومعنى هذا ان المنفعة الشخصية وثيقة الصلة بالمنفعة العامة ، ما دام الفرد عاجزا بالضرورة عن الوصول الى ما هو نافع له ، دن الاجتماع بالاخرين والتضامن معهم وليس الايثار سوى تضحية الفرد بجانب من لذته ، وفي سبيل الحصول على قدر اكبر من اللذة لنفسه ، عن طريق العمل على خدمة مصالح الاخرين (64).

اذن فالمنفعة الذاتية هي الدافع الاصيل لاقامة العدالة ولكن التعاطف مع المنفعة الجمعية هو مصدر الرضاء الاخلاقي الذي يصحب هذه الفضيلة فهيوم يلجأ الى التعاطف لتفسير الفضائل التي من شأنها ان تتسوغ صالح الجماعة وتفضله على صالح الفرد (65).

ان انسانيتنا هي التي ترسم لنا الخط الفاصل بين لذات كاذبة مضرة وبين تلك اللذات الرائعة المفيدة السهلة الموضوعية في تصرف كل عاقل ، مثل لذة الصداقة وتبادل الاحاديث ، ومشاهدة المناظر الطبيعية الجميلة ، هذه اللذات الطبيعية هي بالفعل بلا ثمن لأن بلوغها هو ادنى من كل ثمن في حين ان التمتع بها هو اعلى من كل ثمن (66).

ان مهمة الباحث في نظرية المعرفة ان يصف الطرائق السيكولوجية التي بها يتكون الاعتقاد وكذلك مهمة الفيلسوف الاخلاقي ان يصف الطرائق السيكولوجية التي نقبل بها ونرفض والطرائق السيكولوجية التي يصفها هيوم في كلا المجالين على السواء انما هي شطحات تبعد في كلتا الحالتين عن مبادئه الاساسية والمبدأ النفسي الرئيسي الذي يسعى هيوم الى تطبيقه على اوصافه كافة للسلوك الانساني ولكل ما يقبله الانسان او يرفضه ، ه مذهب اللذة ، فلا شيء يؤثر في الفعل الارادي غير اللذة والالم (67).

وقد يكون التأثير مباشرا ، كأن اسقط من يدي طبقا ساخنا لانه يؤلم يدي ، او غير مباشر ، كان يمنعني خوفي من الالم ان المس طبقا اعتقد انه ساخن وهذا ما يحدث لأن الخوف شعور كريه (مؤلم) ، ولو لم تكن السخونة مؤلمة ، لما استطاع اعتقادي بأن الطبق ساخن ان يؤثر على تصرفاتي ، والعقل لا يستطيع في حد ذاته ان يؤثر على السلوك ، وهو لا يؤثر الا تأثير غير مباشر اما بإكتشافه للوسائل التي تشيع فينا عاطفة ما (وتلك هي

---

(62) الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص209.

(63) المصدر نفسه والصفحة نفسها .

(64) زكريا ابراهيم : المشكلة الخلقية ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، 1966م ، ص149.

(65) الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ص210 .

(66) David Hume ; An Inquiry concerning the priciples of morals , the library of liberal Arts , u.s.a . 1957,p103.

(67) فؤاد كامل واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص531.

الانطباعات الثانوية السارة (وغير السارة) او بإكتشاف وجود شيء ما يثير مثل هذه العاطفة [68].ان لهيوم نوعين من السيكولوجيا واحدة مستمرة من الحاسة الخلقية والثانية تعتمد على مفهوم (المماثلة) وهي سيكولوجيا مستمدة كليا من العلوم الطبيعية . كان هيوم دائم الرجوع الى السيكولوجيا الاولى والاعتقاد عليها ، ولكن الي حدث هو ان السيكولوجيا الثائرة ، وهي التي تقوم على مفهوم (المماثلة) هي وحدها التي حظيت بالصياغة الظاهرة والجلية [69].

لمفهوم دليلين ضد الرأي السائد الذي يقول ان العقل وحده هو الذي يميز بين الخير والشر الاخلاقيين الدليل الاول ان العقل وحده لا يستطيع ان يؤثر على السلوك وان استطاعت الاحكام الاخلاقية ان تؤثر في السلوك احيانا وهذه الحجة قائمة على اساس نظريته النفسية (السيكولوجيا) والدليل الثاني هو ان العقل اكتشاف للحق والباطل ، وهذان لا يكونان الا بالنسبة للعبارات التي نقولها عن امور الواقع او عن العلاقات الكائنة بين الافكار .

وما دامت الاحكام الاخلاقية مختلفة عن امور الواقع وعن علاقات الافكار معا بحيث لا يمكن ان نستنتج منها ، لم يكن في مستطاع العقل ان يحسم المسائل الاخلاقية [70].

من العناصر الفعالة في تنمية الشعور الاخلاقي ، يعبر (هيوم) اهمية كبرى لحب الشهرة ، لأنه يجعلنا ننظر الى انفسنا في الضوء الذي نريد ان نظهر عليه في عيون الاخرين ، وان الجهد لكفالة احترام الاخرين لهو اعظم معلم للفضيلة [71].

ان اول حالة وموقف للانسان يمكن ان يوصفا بحق بأنهما اجتماعيات والحالة الطبيعية التي عاش بها فيها الناس دون تنظيم اجتماعي يجب اعتبارها حديث خرافة فالمجتمع قديم قدم الانسان واذا كان الناس اعضاء في جماعة ، فأنهم سرعان ما تعلموا ان يمتدحوا التصرفات النافعة للجماعة ، ويدموا الضارة بها [72].

ان مبدأ التعاطف جعلهم يميلون الى تقبل او محاكاة الاراء التي سمعوها من حولهم وبهذه الطريقة اكتسبوا معايير وعادات الثناء واللوم ، وطبقوا هذه الاحكام بوعي او بلا وعي على سلوكهم وهذا في رأي (هيوم) اصل الضمير ، لا صوت الله تعالى ، وان قانون التعاطف هذا قانون التجاذب الجماعي هو عام منير في العالم الاخلاقي شأن قانون الجاذبية في الكون المادي [73].

التآزر بين العقل والعاطفة

يترتب على تحليل هيوم للتقويم الخلقي نقطتان هامتان :

اولا: انه لما كان التقييم الاخلاقي لا يتأسس فقط على العاطفة او الوجدان ، فأن بإمكاننا ان نحسم اختلافاتنا ونزاعاتنا الاخلاقية وهذا يعني ان بإمكاننا تطهير معايير اخلاقية موضوعية .

---

(68) المصدر نفسه ، الصفحة نفسها .

(69) د. محمد محمد مدين : فلسفة هيوم الخلقية ، ص31 .

(70) فؤاد كامل واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، ص531-532.

(71) البرت اشفيتسر : فلسفة الحضارة ، ط3 ، ترجمة عبد الرحمن بدوي ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، 1983 ، ص197.

(72) ول ديوارنت ، قصة الحضارة ، ص209.

(73) المصدر نفسه ، ص209-210.

ثانيا : ان العقل يقوم في التقييم الاخلاقي بدور ضروري فليس العقل مجرد خادم للعواطف ، وانما هو ضروري لهذه العواطف الخلقية بنفس القدر الذي تكون فيه هذه العواطف ضرورية للفعل ذاته [74].

يفسر تصور هيوم للمعيار الموضوعي للتقييم الاخلاقي على انه مجرد دعوة الى القيام بعمليات احصاء اجتماعي فإذا ما وافقت اغلبية الناس في مجتمع ما من المجتمعات واستحسنت معيار القيم الاخلاقية المقتر ، فأن هذا المعيار يوصف عندئذ بأنه المعيار الموضوعي ، ويميز هيوم بين العاطفة الاخلاقية والعاطفة الموجهة بالمصلحة ، ان من الصواب ان نقول ان العاطفة المدفوعة بالمصلحة ، والعاطفة الاخلاقية بهما ميل الى ان تختلط كل منهما بالاخرى ، وان تجري كل منهما مجرى الاخرى [75].

ان من النادر ان لا نعتقد ان العدو شرير وفاسد ، ومن النادر ان نميز بين موقفه المعادي لمصلحتنا وسوء خلقه ونذالته في صورتهما الحقيقية ويقضي هذا على فكرة ان العواطف في ذاتها متميزة ومتمايزة ، وان بإمكان المرء الذي يتصف بالبصيرة والحذاقة ان يصون نفسه من خطر الوقوع في الخطأ الذي يقع فيه الكثيرون اي خطأتوهم اصداء احكام تتصف بالاخلاقية في الوقت الذي يحكم فيه هؤلاء بدافع من وجهة نظر متميزة وبدافع من المصلحة فحسب [76].

استقبل فلاسفة الاخلاق نظرية ديفيد هيوم في الاخلاق سواء في عهدة او فيما بعد استقبالا فيه الكثير من (الحفوة) وعدم التعاطف برغم من انه فيلسوف المشاركة الوجدانية بحجة انه لم ينصف الدور الذي يقوم به العقل في الاحكام الاخلاقية والسلوك الاخلاقي ، ويرجع الفلاسفة الى عبارة هيوم الشائقة والتي تقول فيها ان العقل وحده لا مكنه بحال ان يؤثره في الافعال فلا جدوى من زعمنا ان الاخلاق يمكن اكتشافها بالاستدلال العقلي وحده .

لقد حاول كثير من الفلاسفة والمختصين ان يدافعوا عن هيوم ويكشفوا عن دور العقل واهميته في نظريته الاخلاقية وكيف انه لم يفعل دور العقل .

يؤكد الفيلسوف رسل (برتداند) على ان هيوم كان يعتبر نفسه في المقام الاول فيلسوف اخلاق وكان تقديره لنفسه كفيلسوف اخلاف يفوق تقديره لنفسه بإعتباره (فيلسوف نظري) ويعترف بأن كتابه بحث في مبادئ الاخلاق هو افضل اعماله على الاطلاق .

ان من نتائج فلسفة هيوم هو ايضا القضاء على كل دليل ينهض على وجود الله تعالى فهو يقول في كتابه (محاورات في الديانة الطبيعية) اننا لا نعلم عن العلة شيئا الا انها الحادثة السابقة التي تشاهدها قبل حدوث معلولها اذن فلا بد من مشاهدة الحادثتين معا السابقة واللاحقة على السواء ، اننا نستدل من وجود الساعة على وجود صانعها ، لاننا رأينا الساعة الصانع كليهما ، اذن فوجود الكون لا يقدم دليلا على وجود صانعه الا اذا رأينا الصانع والمصنوع جميعا .

انتهى هيوم الى موقف شك فيه بكل الاشياء حوله وعبثا حاول التخفيف من شلوكه فإعتبر ان ضرورات الحياة تعرض على الانسان الاعتقاد بوجود الاشياء حوله ، وبأن معرفته جديرة بثقته في بناء مستقبله.

---

(74) محمد محمد مدين : فلسفة هيوم الخلقية ، ص145.

(75) المصدر نفسه ، ص146.

(76) المصدر نفسه ، ص146-147.

المصادر

1- الشنيطي ، محمد فتحي : فلسفة هيوم بين الشك والاعتقاد ، ط1 ، دار الوفاء لدينا الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، 2010م.
2- كريم متى : الفلسفة الحديثة عرض نقدي ، ط2 ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، بلا .
3- برتراند رسل : حكمة الغرب ، ج2 ، ترجمة فؤاد زكريا ، سلسلة كتب ثقافية ، الكويت ، 1990م.
4- ول ديورانت : قصة الحضارة ، ج1 ، عن المجلد التاسع ، ترجمة فؤاد اندراوس ، بيروت ، 1988م.
5- ابراهيم بيومي مدكور ، يوسف كرم ، دروس في تاريخ الفلسفة ،لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1953.
6- فؤاد كامل واخرون : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، دار القلم ، بيروت ، بلات .
7- يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار القلم ، بيروت ، بلا .
8- محمد عثمان الخشت ، العقل وما بعد الطبيعة ، تأويل جديد لفلسفتي هيوم ، ط1 ، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع ، 2005 م.
9- ولتر ستيس : الابن والعقل الحديث ، ترجمة امام عبد الفتاح امام ، مكتبة مدبولي ، 1998م.
10- صالح الشماع : مشكلات الفلسفة من حيث نظرية المعرفة والمنطق ، ط2 ، مطبعة جامعة بغداد ، 1977م.
11- زكي نجيب محمد ، قصة الفلسفة الحديثة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1936 م .
12- محمد محمد قاسم : مدخل الى الفلسفة ، ط1 ، النهضة العربية ، بيروت ، 2001م.
13- اسماعيل الشرقا : الموسوعة الفلسفية ، دار اسامة للنشر والتوزيع ، عمان ، 2002م.
14- ابراهيم مصطفى : الفلسفة الحديثة من ديكارت الى هيوم ، دار الوفا لدينا الطباعة والنشر ، الاسكندرية ، 2001 ، ص323.
15- جون لوك : فاروق عبد المعطي ، ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1993م.
16- د. جعفر حسن الشكرجي ، دراسات في الميتافيزيقا والنفس ، مكتبة الاندلس ، بنغازي ، 2002 م .